الفصل الخامس

الاحتفال بالأعياد المسيحية فى مصر صورة رائعة للوحدة الوطنية

(١)

الشعب المصرى شعب يميل إلى البهجة منذ أقدم العصور، وينتهز الفرص لإقامة الاحتفالات، ليدخل على نفسه أكبر قدر من السعادة والبهجة. وقد لاحظ هيرودوت ذلك عند زيارته لمصر، فكتب يقول:

«..لقد سبق المصريون الشعوب إلى إقامة الأعياد العامة والمواكب العظيمة، وعنهم تعلم اليونانيون».

ويقول أيضا:

«والمصريون لا يحتفلون مرة واحدة فى السنة بعيد شعبى عام؛ ولكن أعيادهم العامة كثيرة[١]».

ويضرب على ذلك الأمثلة، ومن هذه الأمثلة احتفال يقام نهارا بمدينة بوباسطيس (تل بسطة الحالية):

(١) هردوت: هردوت يتحدث عن مصر (ترجمة محمد صقر خفاجة)، القاهرة، ١٩٦٦، ص ١٥٩.

«يبحر الرجال والنساء معا، ويحمل كل قارب عددا كبيرا من الجنسين. ويطبِّل بعض النسوة على الطبول التى بأيديهن، وبعض الرجال يزمرون طول الطريق. أما باقى النساء والرجال فيغنون ويصفقون[1]».

وفى موضع آخر:

«وعندما يجتمع المصريون فى سايس (صا الحجر الحالية) يشعلون جميعا، ليلة التضحية، مصابيح عديدة فى الهواء على شكل دائرة حول منازلهم. وهذه المصابيح عبارة عن أوان مسطحة مملوءة بالملح والزيت. ويطفو على سطحها فتيل يشتعل طول الليل. ولذا يسمى العيد «عيد المصابيح». والذين لا يذهبون إلى هذا الاحتفال من المصريين يترقبون ليلة التضحية، ويشعلون بدورهم جميعا المصابيح. وهكذا فالمصابيح لا تشعل فى سايس وحدها بل فى مصر كلها[2]».

إن هذه الاحتفالات الصاخبة التى يتحدث عنها هيرودوت تؤكد رغبة المصريين العارمة فى الاحتفال بالمناسبات لإدخال السعادة على نفوسهم منذ أقدم العصور. كما أنها تشير بوضوح إلى أن طريقة الاحتفال عند المصريين ممتدة حتى الآن، وعلى القارىء أن يقارن بين الاحتفال النهارى الذى ذكرناه ورحلات القناطر الخيرية التى يقوم بها الشباب إلى الآن ليتبين أننا أمام صورة مكررة، وأن يقارن بين إضاءة البيوت والمعابد فى العصر الفرعونى وبين إضاءة المساجد والبيوت فى شهر رمضان حتى الآن، وإضاءة الكنائس والشوارع وواجهات البيوت فى الأعياد المسيحية.

(١) هردوت يتحدث عن مصر: ص ١٦٠ – ١٦١.

(٢) هردوت يتحدث عن مصر: ص ١٦٤.

(٢)

هذا الشعب المحب للبهجة، المقبل على الحياة، حين جاءته المسيحية استمرت أعياده المرتبطة بالنيل كما هي، وأضاف إليها العديد من الاحتفالات الدينية. وحين دخل الإسلام إلى مصر لم تنقرض هذه الأعياد، بل استمرت، وشارك المسلمون فى هذه الاحتفالات، وقد لاحظ كل من شاهد الاحتفالات المسيحية فى مصر الإسلامية أن المسلمين يشاركون فيها إخوانهم المسيحيين. وحين حضر المؤرخ الرحالة المسعودى احتفالات مصر بعيد الغطاس فى عصر الدولة الإخشيدية، كتب:

«ولقد حضرت سنة ثلاثين وثلاثمائة ليلة الغطاس بمصر، والأخشيد محمد بن طغج فى داره المعروفة بالمختارة، فى الجزيرة الراكبة للنيل، والنيل يطيف بها، وقد أمر فأسرج من جانب الجزيرة وجانب الفسطاط ألف مشعل غير ما أسرج أهل مصر من المشاعل والشمع. وقد حضر النيل فى تلك الليلة مئو (مئات) آلاف من الناس من المسلمين والنصارى، منهم فى الزوارق ومنهم فى الدور الدانية من النيل، ومنهم على الشطوط، لا يتناكرون الحضور، ويحضرون كل ما يمكنهم إظهاره من المآكل والمشارب والملابس وآلات الذهب والفضة والجواهر والملاهى والعزف والقصف، وهى أحسن ليلة تكون بمصر، وأشملها سرورا، ولا تغلق فيها الدروب، ويغطس أكثرهم فى النيل، ويزعمون أن ذلك أمان من المرض[1]».

(١) المسعودى: مروج الذهب (تحقيق محمد محيى الدين بن عبد الحميد)، بيروت، ١٩٨٢، ج ١، ص٣٤٣ – ٣٤٤.

أما المستشـرق الإنجليزى إدوارد لين الذى حضر إلى مصر، فى عصر محمد على باشـا، فكتب فى كتابه «المصريـون المحدثون» عن الظاهرة نفسـها يقول: «من العجيب أن يمارس المصريون المسلمون عادات دينية أو خرافية فى أوقات خاصة من التقويم القبطى».

ويتحدث عن يوم يسمى «أربعاء أيوب» فيقول:

«يستحم كثيرون فى هذا اليوم بالماء البارد، ويدلكون أنفسهم بالنبات المسمى «رعرع أيوب» أو «غُبيرة» تبعا لأسطورة تقول إن أيوب فعل هكذا ليسـترد صحته. وكانت هذه العادة وغيرها من العادات التى سـأذكرها حالا خاصة بالأقباط، غير أن الكثير من المسلمين فى المدن وأكثر الريفيين يراعونها الآن[1]».

وحين يتحدث بعد ذلك عن الأعياد المسيحية يستخدم لفظ «المصريون» دون تمييز بين مسلم ومسيحى.

وفى العصر الحديث كتب الدكتور ميلاد حنا:

«لقد أوجد التاريخ المشترك والوجود المتداخل أعيادا دينية مشتركة؛ فالأيام الأولى للسـنة الهجرية (عاشـوراء) يحتفـل بتقاليدها فى أغلب بيوت الريف المصرى الأقباط والمسـلمون، وعندمـا يحل المولد النبوى، يطالب الطفل القبطى بالحصان وتبكى الطفلة للحصول على (العروسـة الحلاوة) ويجمع شم النسيم الذى يأتى عقب عيد القيامة مباشرة كلا من

(١) إدوارد وليم لين: المصريون المحدثون شمائلهم وعاداتهم (ترجمة عدلى طاهر نور)، القاهرة، ١٩٧٥، ص ٤١٣ - ٤١٤.

الأقبــاط والمســلمين انطلاقا من تراث مشــترك يعود إلى أيــام الفراعنة وعيد الحصاد[1]».

إن هــذه الأقوال التــى تتوزع على طول التاريخ الإســلامى فى مصر تؤكد لنا أن هذه الأعياد المســيحية لم تعد مســيحية خالصة، إذ تبناها المصريون جميعا، من المسلمين والمسيحيين معا. فى تعالٍ على النزعات الضيقة التى تفرق بين أبناء الوطن الواحد.

(٣)

والأعياد المسيحية نوعان:

- أعياد ترتبط بالنيل.
- أعياد دينية.

أولا: الأعياد المرتبطة بالنيل

● شم النسيم

يرتبط الاحتفال بهذا العيد بالشــعائر الخاصة بأوزيريس، فأوزيريس الذى قتله ســت يبعث من جديد، كل عام، مؤكدا على تجدد الحياة. ويرتبط البعث لدى المصريين باعتبارهم مجتمعا زراعيا بالإنبات والإثمار والربيع، وماله من دلالات على الخصب.

وأصل الاســم فى الفرعونية شمــو، لكنها تحرفت عبر العصور حتى صارت فى العصر الإســلامى «شــم النسيم»، ولا أحد يستطيع أن يحدد

(١) جمال بدوى: مصر من نافذة التاريخ، القاهرة، ١٩٩٥، ص ١٣٢.

على وجه الدقة عمر هذا الاحتفال، لكن البعض يقدر عمره بخمسة آلاف سنة تقريبا.

وشم النسيم هو اليوم الذى يتساوى فيه الليل والنهار؛ ولأن المصريين القدماء كانوا بارعين فى الفلك فقد اختاروا هذا اليوم ليكون موعدا باحتفالهم بالربيع والبعث.

وبعد دخول المسيحية إلى مصر لم يتخل المصريون عن احتفالهم بشم النسيم باعتباره عيدا للربيع وما يرتبط به من معانى البعث والخصوبة. ومن الطريف أن موعده يرتبط بعيد القيامة، لذلك يحتفل المسيحيون بعيد القيامة يوم الأحد ثم يحتفلون بشم النسيم فى اليوم التالى له مباشرة.

وشم النسيم يأتى كل عام فى أبريل، وهو يناسب شهر برموده من الشهور القبطية.

وقد شاهد المستشرق إدوارد لين هذا الاحتفال أثناء حكم محمد على باشا وكتب عنه:

«يحتفل بشم النسيم فى اليوم الأول من الخماسين، فيقوم المصريون، وخاصة النساء، مبكرين فى هذا اليوم، فيكسرون بصلة ويشمونها ويبكرون بالذهاب إلى الريف المجاور، راكبين أو راجلين، أو يتنزهون فى النيل. ويتجهون إلى الشمال على العموم ليتنسموا النسيم أو كما يقولون ليشموا النسيم. وهم يعتقدون أن النسيم، فى ذلك اليوم، ذو تأثير مفيد عجيب. ويتناول أكثرهم الغذاء فى الريف أو فى النيل[1]».

(١) المصريون المحدثون: ص ٤١٤.

ويرتبط شم النسيم لدى المصريين بأطعمة معينة، هى: الفسيخ، البيض، الملانة (الحمص الأخضر)، الخس.

ولهذه الأطعمة دلالات رمزية، فالبيض يرمز لشكل الكرة الأرضية التى شكلها الإله بتاح، كما أنه يشير لخروج الحياة من هذا الشىء الذى يبدو جامدا ساكنا.

أما السمك المملح، أو الفسيخ، فيمدنا الدكتور أحمد بدوى بتفسير لمكانته عند الفراعنة حين يقول:

«قُدس السمك وبخاصة أيام الرعامسة فى كثير من أقاليم مصر، مثل إسنا وأبيدوس فى صعيدها ثم البهنسا فى أقاليمها الوسطى.... وكذلك عُدَّ السمك من رموز الحياة، وأصبح شعارا لأوزيريس[1]».

ويذكر هيرودوت فى كتابه عن مصر أن المصريين «يأكلون بعض السمك نيئا، مجففا فى الشمس، ويأكلون البعض الآخر بعد حفظه فى الملح[2]».

نخرج مما سبق بما يأتى:

- الفسيخ طعام مصرى قديم.
- للفسيخ دلالة معينة ترتبط بالتقديس، وبعبادة أوزيريس.
- يعتبر السمك رمزا من رموز الحياة لدى المصريين القدماء.

أما أكل الخس فله ارتباط بالخصوبة، إذ اعتقد المصريون القدماء أن الخس يمنح الرجال الخصوبة والقدرة الجنسية.

---

(١) هردوت يتحدث عن مصر: ص ١٢٦ (هامش رقم ١).

(٢) هردوت يتحدث عن مصر: ص ١٨٤.

ولم يقتصر المصريون على شم البصل يوم شم النسيم، فهم يأكلونه أيضا. وقد ارتبط البصل بعلاج كثير من الأمراض منذ العصر الفرعونى، كما أنه كان نباتا مقدسا عندهم.

ولا يزال الاحتفال بشم النسيم مستمر إلى اليوم، ويشارك فيه المسلمون والمسيحيون بالخروج للريف والنزهات النيلية وتناول الأطعمة الخاصة به.

● عيد الشهيد

يقول المقريزى فى كتابه الخطط:

«ومما كان يعمل بمصر عيد الشهيد وكان من أنزه فُرَج مصر، وهو اليوم الثامن من بشنس (٣ مايو) أحد شهور القبط، ويزعمون أن النيل لا يزيد فى كل سنة حتى يلقى النصارى فيه تابوتا من خشب فيه إصبع من أصابع أسلافهم الموتى، ويكون ذلك اليوم عيدا[1]».

وفى رأيى أن الشهيد هو أوزيريس، لأن المعروف أن أخاه ست قتله فاعتبره المصريون شهيدا، وأن التابوت هو تابوت رمزى لتابوت هذا الشهيد، أما الإصبع الذى يتحدثون عن وجوده فى التابوت فأغلب الظن أنه ليس كذلك، بل هو رمز لعضو التذكير، لأن المعروف أن إيزيس جمعت كل أعضاء زوجها الشهيد عدا عضو التذكير، وهذا العضو هو المسئول عن الخصوبة، وبالتالى كان المصريون يلقون بنموذج لهذا العضو فى النيل لكى يقوم أوزيريس بمنح الخصوبة للأرض المصرية.

---

(١) المقريزى: المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت، بدون تاريخ، (نسخة مصورة عن طبعة بولاق)، ج١، ص ٦٨ – ٦٩.

وأيا ما كان الأمر فإن هذا الاحتفال كان له شأن عظيم عند المصريين، وقد وصفه لنا المقريزى فى خططه على النحو التالى:

«ترحل إليه (أى إلى الاحتفال) النصارى من جميع القرى، ويركبون فيه الخيل، ويلعبون عليها، ويخرج عامة أهل القاهرة ومصر على اختلاف طبقاتهم، وينصبون الخيم على شطوط النيل، وفى الجزائر، ولا يبقى مغن ولا مغنية ولا صاحب لهو ولا رب ملعوب..... إلا ويخرج لهذا العيد. فيجتمع عالم عظيم لا يحصيهم إلا خالقهم[1]».

وهذا الوصف يدل على ما كان يمارسه المصريون (مسلمون ومسيحيون) من تصرفات تدل على السعادة، وتوقع الخير فى العام الجديد.

وقد استمر الاحتفال بعيد الشهيد حتى القرن الثامن الهجرى، ثم انتهى بتدخل الدولة، وإحراق هذا العضو الذى يحتفل بإلقائه فى النيل.

● ليلة النقطة

والاحتفال بليلة النقطة يختلف عن الاحتفالين السابقين، لأنه يتم ليلا، إذ يعتقد المصريون أنه فى ليلة السابع عشر من يونيو، الموافقة لليلة الحادية عشرة من بؤونة تسقط فى النيل نقطة عجيبة، وتكون هى السبب فى ارتفاعه. ويقول أحمد أمين فى «قاموس العادات والتقاليد» إن المصريين يعتقدون أن هذه النقطة هى أول نقطة من الأمطار ترد إلى مصر، وإن المصريين يستبشرون بها وينسبون إليها تنقية الهواء، ومنع الأمراض، وخصوصا الطاعون[2].

(١) المواعظ والاعتبار: ج١ ص ٦٩.

(٢) أحمد أمين: قاموس العادات والتقاليد، القاهرة، ١٩٩٩، ص٤٦٢.

ويصف إدوارد لين هذا الاحتفال كما رآه:

«ويمضى كثير من سكان القاهرة وضواحيها، ومن جهات أخرى بمصر، هذه الليلة على ضفاف النيل، ويمضيها البعض فى منازل أصدقائهم، وآخرون فى الهواء الطلق. ويراعى الكثيرون أيضا، وخاصة النساء، عادة غريبة فى ليلة النقطة. فيضعون فوق سطح المنزل، بعد الغروب، عجينا بقدر عدد سكان المنزل، فيعلم كل منهم قرصه. وفى فجر اليوم التالى ينظرون إلى الأقراص. فيستدلون من تشقق أحدها على أن صاحبه تطول حياته، أو لا تنقضى ذلك العام. ويستنتج العكس إذا لم يكن القرص مشققا. ويقول البعض: إن هذه العادة تراعى أيضا لمعرفة ما إذا كان النيل يرتفع فى الموسم التالى[1]».

وقد انقرض الاحتفال بهذه الليلة فى أيامنا الحالية، وسبب هذا أن السد العالى جعلنا لا نشعر بخطورة عدم وفاء النيل، كما كان يحدث فى العصور السابقة، حيث كان هذا يعنى الجوع وربما الموت لعدد هائل من المصريين.

• وفاء النيل

وهذا العيد هو أهم الأعياد المرتبطة بالنيل، ويرتبط بوفاء النيل، أى أن يأتى النيل ستة عشر ذراعا فأكثر. فقد اتفق الناس على أن هذا هو الحد المناسب لكى يكون العام خصبا، ويدفع الناس للحكومة الضرائب المقررة، أما إذا جاء النيل شحيحا عن هذا الحد فهو التهديد

(١) المصريون المحدثون: ٤١٥.

لمصر بالمجاعة، وإذا جاء أعلى من ثمانى عشرة ذراعا فهذا معناه تهديد البلاد بالغرق، وتهديد الناس بالطاعون.

ويكون وفاء النيل فى مسرى من شهور القبط (يوليو/ أغسطس). لكن زيادته تبدأ فى الخامس من بؤونة (حوالى ٢٩ مايو)، وتستمر حتى آخر بابه (٢٦ أكتوبر)[١].

ويروى المؤرخ ابن عبد الحكم، أنه عند فتح المسلمين لمصر جاء أهلها إلى عمرو بن العاص حين دخل بؤونة (يونيو) وقالوا له:

– أيها الأمير، إن لنيلنا هذا سنَّة لا يجرى إلا بها.

فقال لهم: وما ذاك؟

قالوا: إنه إذا كان لثنتى عشرة ليلة تخلو من هذا الشهر عمدنا إلى جارية بكر بين أبويها، فأرضينا أبويها وجعلنا عليها من الحلى والثياب أفضل ما يكون، ثم ألقيناها فى هذا النيل.

فقال لهم عمرو: إن هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما قبله. فأقاموا بؤونة وأبيب ومسرى لا يجرى النيل قليلا ولا كثيرا حتى هموا بالجلاء عن مصر. فلما رأى عمرو ذلك كتب إلى عمر بن الخطاب بذلك، فكتب إليه عمر: قد أصبت، إن الإسلام يهدم ما كان قبله، وقد بعثت إليك ببطاقة، فألقها فى داخل النيل إذا أتاك كتابى.

فلما قدم الكتاب على عمرو فتح البطاقة فإذا فيها: «من عبد الله عمر أمير المؤمنين، إلى نيل أهل مصر، أما بعد فإن كنت تجرى من قِبلك

(١) القلقشندى: صبح الأعشى، القاهرة، ٢٠٠٤، ج٣ ص ٢٩٤ – ٢٩٥.

فلا تجرِ، وإن كان الله الواحد القهار الذى يجريكَ فنسأل الله الواحد القهار أن يجريك.

فألقى عمرو البطاقة فى النيل قبل يوم الصليب (١٧ توت / أغسطس) بيوم، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج منها، لأنه لا يقوم بمصلحتهم فيها إلا النيل، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعا فى ليلة، وقطع تلك السُّنَّة السوء عن أهل مصر[١].

وفى رأيى أن هذه القصة ملفقة، وأن هذه الواقعة لم تحدث. وأن الغرض منها إضفاء طابع إسلامى على فيضان النيل، والقول بأنه يفيض بأمر الله وليس نتيجة للعقائد الوثنية السابقة على مجىء الإسلام لمصر.

ويرى البعض أن تقديم أضحية بشرية للنيل يمثل اتهاما للمصريين بالبربرية، لكن بعض الباحثين يرون عكس ذلك، وأن أغلب الشعوب قد قدمت ضحايا بشرية، وأن موسى عليه السلام وعديدا من المشرعين والملوك قد رغبوا فى إلغاء مثل هذه الأضاحى المنافية للقيم الدينية. وأمر أمازيس (حاكم مصر عام ٥٦٩ قبل الميلاد) بتقديم أضاحى بهيئات بشرية بدلا من التضحية الفعلية بالبشر. وربما يكون هذا الأمر بمثابة المنشأ المعروف بعروسة النيل[٢].

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب، القاهرة، ١٩٩٩، ص ٢٠٣ – ٢٠٤.

(٢) نخبة من علماء الحملة الفرنسية: وصف مصر، القاهرة، ٢٠٠٢، ج١٢، ص ٢٩٢ – ٢٩٣ (بحث لوبير الأب).

ويصـف عريان لبيب حنـا فى كتابه «الشـخصية المصرية فى مصر القديمة» الاحتفال بوفاء النيل فى مصر القديمة فيقول:

«وكان إذا حـل فصل الفيضان، وجـاء يوم وفاء النيل خرجت الأمة عن بكرة أبيها فرحة مستبشرة، للاحتفال بعيده احتفالا شعبيا عظيما، فتحتشد الجموع على شواطىء النهر العظيم لمشاهدة مراكب الملك والأمراء والنبلاء والكهنة الجميلة، وهى تتهادى كالعروس فى خيلاء على صفحة النيل الخالد الهادئة، وحولها الفلك حاملة بعض أفراد الشعب فى منظر خلاب جميل، بين التهليل والتصفيق وزغاريد النسـاء، وصياح الأطفال الذين يلبسـون الملابس الملونة بالألوان المصرية القديمة الزاهية هاتفين: «يا جعبى يا جعبى» (وهذا هو المشاهد تماما فى حفل نقل مراكب آمون بالنيل فى عيد ايبت المنقوش على جدران معبد الأقصر).

وكان المصريون القدماء يرسمون بالطباشير على أقمشة ثمينة غالية صورا لبعـض الآلهـة ويعطرونها ويلقون بها فى نهر النيل لهذه المناسـبة، كما جاء ذلك فى بردية وثيقة رعمسـيس الثانى. (وهذا هو أصل الخرافة التى يتناقلهـا الناس الآن عن عروس النيـل) وكذلك كانوا يلقون أحيانا ببعض التماثيل، ثم ينحرون الذبائح. وكانت النساء الراقصات المغنيات (الغوازى) يطفن بالقرى والبلدان والأسواق لتسلية الجماهير، واحتفالا بعيد وفاء النيل السعيد بصحبة فرقة موسيقية مكونة من عازف المزمار الغاب ذى القصبتين أو الناى وضارب الدف، وتقضى البلاد يومها فى فرح شامل[1].

(١) عريـان لبيـب حنا: الشـخصية المصرية فى مصر القديمـة، القاهرة، ٢٠٠٣، ص ١٧٥ - ١٧٦.

ومن حسن الحظ أن القلقشندى ترك لنا وصفا تاما للاحتفال فى العصر الفاطمى، فى كتابه «صبح الأعشى»، ويقول إن الاحتفال فى العصر الفاطمى كان ينقسم إلى قسمين:

- الأول: تخليق المقياس (أى تعطيره).
- الثانى: كسر السد.

فى يوم تخليق المقياس يركب الخليفة فى موكب عظيم إلى مقر المقياس فى جزيرة الروضة، وحوله وجوه الدوله، وهناك يؤتى بالزعفران والمسك فيضعه فى إناء ويذيبه بيده بآلة معينة، ثم يتناول صاحب بيت المال الإناء من الخليفة ليناوله لابن أبى الرداد (المسؤول عن المقياس)، فيلقى بنفسه فى الفسقية بثيابه فيتعلق فى العمود (المقياس) برجليه ويده اليسرى ويخلقه بيده اليمنى، وقراء الحضرة من الجانب الآخر يقرأون القرآن[1].

أما يوم كسر السد فالاحتفال فيه أعظم. ويكون عادة ثالث أو رابع يوم من تخليق المقياس. وفى هذا اليوم فتنصب للخليفة خيمة عظيمة اسمها «القاتول» فى بر الخليج الغربى، على حافته عند منظرة يقال لها السُكرة، ويُضرب لأرباب الرتب خيام كثيرة على قدر مراتبهم، وبعد السلام، وقراءة القرآن، يتقدم الشعراء لإلقاء قصائدهم بين يدى الخليفة. ثم ينتقل الجمع إلى خيمة أخرى تشرف على السد، ويشير الخليفة بكسر السد، فيفتح بالمعاول، وتضرب الطبول، والأبواق من البرين. وفى أثناء ذلك يصل السماط (المائدة) من القصر، ويوزع منها على

(١) صبح الأعشى: ج٣ ص ٥١٧.

رجال الدولة على قدر مراتبهم، فإذا اعتدل الماء فى الخليج دخلت فيه السفن الكبار التابعة للخليفة، وهى سبع، الذهبى المختص بالخليفة، والفضى، والأحمر، والأصفر، والأخضر، واللازوردى، والصقلى، وتسير حتى ترسو على بر المكان الذى فيه الخليفة فيركبها، ويسير بها فى بر الخليج الغربى حتى يصل إلى بستان الدكة، وقد علقت دهاليزه بالزينة، ثم يعود إلى قصره من باب القنطرة[1].

وقد استمر الاحتفال خلال العصر العثمانى، وحين جاءت الحملة الفرنسية حاولت مشاركة المصريين فى الاحتفال، إلا أن أغلب المصريين قاطع الاحتفال تعبيرا عن رفضهم للاحتلال. ثم عادوا للاحتفال به بعد ذلك، ولعل أفضل من وصفه هو المستشرق الإنجليزى فى كتابه «المصريون المحدثون»، وسننقل هذا الوصف كاملا ليعرف المواطن المصرى أهمية هذا العيد الذى استمر يوحد المصريين أكثر من ألف عام. يقول لين:

«كان هناك بناء حجرى صغير، فى الجانب الشمالى للخليج، يشرف على السد، ... وكان عظماء القاهرة يشاهدون عادة قطع السد منه.... يقام (عليه) سرادق كبير لاستقبال هؤلاء الذين عليهم مشاهدة القطع ومراقبته. وتقام أيضا خيم أخرى للزائرين الآخرين. وتقيم الحكومة عددا كبيرا من الألعاب النارية، لتكريم الحفل، ولتسلية الجمهور، فى الليلة السابقة على يوم قطع السد، وأثناء تنفيذه فى الصباح المبكر. وتقام عدة خيم صغيرة كذلك لبيع الحلوى والفاكهة والمأكولات الأخرى، والقهوة إلخ..، بطول ضفة جزيرة الروضة، مقابل مدخل الخليج. ويسمى يوم قطع

(١) صبح الأعشى: ج٣ ص ٥٢٠ – ٥٢١.

السد «يوم جبر البحر» وتعنى كلمة «جبر» هنا الكسر، وإن كان معناها الحقيقى هو العكس. ويطلق عليه، وعلى الأصح يوم «وفاء البحر» أو «وفاء النيل» السابق شرحها. ويسمى عيد الخليج أيضا «موسم الخليج».

وفى عصر اليوم السابق على قطع السد، تقصد المراكب العديدة، التى يؤجرها جماعات خاصة للتسلية، قريبا من مدخل الخليج. وبين هذه المراكب مركب ضخم، يسمى العقبة، تصنع للمناسبة بشكل زخرفى غليظ، وتحمل مدفعين صغيرين أو أكثر، وتعلق إلى حبالها عدة مصابيح، تكون رسوما مختلفة، كنجمة كبيرة إلخ.. وبهذا المركب أيضا، فوق القمرة، خيمة مقفلة كبيرة، من الحرير وغيره، تزين برايتين. ويعتقد العامة أن هذا المركب يمثل سفينة فاخرة، تعود المصريون، قبل غزو العرب لبلدهم، أن يحملوا فيها العذراء، التى يقذفونها فى النيل، حسب قولهم. ويغادر المركب بولاق، وبعد الظهر بثلاث ساعات يحمل ركابا، من الرجال والنساء، مقابل أجر.ويركب النساء عادة، حسب رغبتهن، فى الخيمة الكبيرة المذكورة سابقا.ويربط المركب إلى ضفة جزيرة الروضة، المقابلة مباشرة لمدخل الخليج. وتظل أغلب المراكب الأخرى أيضا بجانب «العقبة»، طول الليل، على شاطىء الجزيرة، غير أن بعضها تظل تتهادى فى النهر، بالقلوع والمجاديف طول المساء والليل. ويتسلى الملاحون والراكبون بالغناء بمصاحبة الدربُكة والزمارة فى كثير من الأحيان. ويؤجر بعض الجماعات الخاصة الموسيقيين المحترفين ليزيدوا فى تسليتهم على النهر. ويبتهج الحشد بالحفل ابتهاجا شديدا وقل أن يوجد أجنبى يفكر فى أن يستطيع مشاركتهم تسليتهم. ويبدو أن لا شىء يعوزهم للسرور

أكثر من الاحتشاد والضجة، مع الشُّبُك (آلة للتدخين تشبه البايب، لكن يدها طويلة) والقهوة. وكان العيد يحضره دائما فى السنوات السابقة، الغوازى (حرم عليهن الرقص الآن)، والمغنون والموسيقيون والقصاصون (الذين يروون القصص). ويبدأ فى المساء قبل الظلام استعراض الألعاب النارية. ويستمر هذا، مع إطلاق المدافع من العقبة، ومن مركبين مدفعيين أو أكثر، كل ربع ساعة، طوال الليل، ويطلق حوالى إثنى عشر مدفعا فى كل من هذه الأوقات. وكان مجموع الطلقات، ليلة الاحتفال فى العام الحالى، ستمائة طلقة تقريبا. ويحتفظ بأحسن الألعاب النارية للصباح، فتعرض فى ضوء النهار، أثناء قطع السد. وفى الليل يظهر النهر وضفافه فى منظر جميل يستحق الاعتبار. فالمراكب العديدة تقطعه صعودا ونزولا، والمصابيح تعلق على العقبة وعلى المراكب الأخرى، وعلى الشاطىء أيضا، حيث تثبت المشاعل فى الأرض (والكثير منها تثبت فوق السد وبجواره، وأكثرها على شاطئ الجزيرة). ولأنوار المصابيح تأثير شديد تزيده بهجة طلقات المدافع، وعرض الألعاب النارية. وشاطىء الجزيرة أكثر الجهات ازدحاما فى مكان الاحتفال ليلا. ويُسَرُّ كل شخص بالنوم هناك، ولا يعوقهم عن ذلك ضجة المدافع وغيرها.

يبدأ العمال فى قطع السد قبل الشروق. ويقع هذا العمل على عاتق «التُّربيَّة» واليهود فى سنين متعاقبة. وتوفى الحكومة كلاهما أجرا. ويضطر اليهود عندما يقع العمل على عاتقهم فى يوم السبت، إلى دفع مبلغ سخى للخلاص من إثم يجره عليهم انتهاك حرمة يوم راحتهم، بقيامهم بما تفرضه الحكومة. ويقطع السد من الخلف بجاروف حتى

يـدق تدريجـا (إذ ينقل التراب فى سـلال ويقذف به فوق الشـاطىء)، ويصبح عرض القمة قدما. ويسـتمر ذلك بعد الشـروق بساعة. وقبيل هذا الوقت، عندما تجتمع الحشود المكدسة بجوار السد على ضفتى الخليج، يقـدم حاكم العاصمة، وينزل فى الخيمة الكبيرة المذكورة سـابقا بالقرب من السـد. ويحضر أيضا بعض كبـار الموظفين الآخرين. ويحضر القاضى ويكتب الوثيقة ليشـهد أن النهر بلغ الارتفاع الكافى لفتح الخليج، وأن هـذا العمل قد تم، ثم يعجل بإرسـال هذه الوثيقة المهمة إلى الآسـتانة. وأثناء ذلك يستمر إطلاق المدافع، وعرض الألعاب النارية، وعند الانتهاء من ذلك تعرض أحسـن الألعاب النارية، التـى يصعب رؤيتها فى وهج الشـمس المشرقة. وعندما يكون السـد قد قطع إلى الحد السابق، ويكون جميع الموظفين الكبار الواجب حضورهم قد وصلوا، يقذف حاكم العاصمة كيسـا من النقـود الذهبية الصغيرة إلى العمـال. ويُدفع بعد ذلك بمركب مأمور الوالى السابق إلى حرف التراب الضيق فيحطم الحاجز الرقيق، ويمر خلاله فوق الشـلال الذى أحدث.... وسريعا ما يجرف اندفاع الماء بقية السد إلى مجرى الخليج، فتدخله مراكب عديدة أخرى، تمر بطول القناة من أول المدينة إلى آخرها، ويتوغل بعضها أميالا عديدة ثم تعود[1]».

أما العروسـة التى يقدمونها للنيل فقد تحولـت مع الزمن إلى عمود مدرج ارتفاعه حوالى عشرة أقدام. بحيث يتذكر من يراها مقياس النيل. وربمـا كان الهدف من هذا العمود قياس ارتفاع ردم السـد. ويحاط هذا العامـود بالطين، ومع حركة الماء يصير مخروطيا، ثم يزرع هذا المخروط

(١) المصريون المحدثون: ص ٤١٨ – ٤٢٠.

الطينـــي بالنباتات والورود ويطلى باللون الأبيض[1]. والمعروف أن اندفاع الماء عند كسر السد يأخذ هذه العروس فى طريقه.

وقـد تغير هذا الاحتفال فـــى هذه الأيام، فلم يعد احتفالا شـعبيا، ويقتصـــر أمره على احتفال رسمى يحضره محافـظ العاصمة. وربما كان الســبب أن الناس بعد خزان أســوان والســد العالى ما عادوا يخشــون انخفـاض النيــل، وأمنوا من تقلباته، بحيث ما عــادوا يهتمون به كما كانوا يفعلون من قبل. أضف إلى هذا أن تحول الكثيرين للنشاط الصناعى قد قلل الاهتمام بهــذا الاحتفال النيلى المرتبط بالزراعة، كما أن جزيرة الروضة التى كانت مكانا لهذا الاحتفال قد صارت مكانا ســكنيا بعد أن كانت مزارع غناء، وأرضا براحا تســمح بحضور سكان القاهرة والأماكن القريبة منها للمشاركة فى الاحتفال.

● يوم النيروز

كان المصريــون القدمــاء يحتفلون برأس الســنة، وحين دخلت مصر المسيحية استمر الاحتفال، ولم يتغير الأمر بعد مجئ الإسلام، إذ استمر الاحتفال بعد الإســلام مئات الســنين قبل أن يتوقف فى نهاية العصر المملوكى لسوء الأحوال العامة فى البلاد.

ويــرى البعــض أن كلمة نيروز فى الأصل كلمة فارســية اســتعارها المصريــون من الفرس، أو الســريان، لكن الدراســات الحديثة الخاصة باللغة القبطية أثبتت عكس هذا، إذ يرى عصام ستاتى فى كتابه «مقدمة

(١) وصف مصر: ج ١٢ ص ٢٩٤.

فى الفولكلـور القبطى» أن «العبارة نور روج، أو نوى روز، أى الفيضان المنعش قد تكون هى الأصل. كما أن هناك عبارات مصرية قديمة مشابهة مثـل نـوى روح ونور روز وتعنـى التوالى وقت الازدهار والمياه المنعشـة «كما يضيف أن الفرس لم يعرفوا هذا الاسم قبل احتلالهم لمصر[1].

وموعد هذا العيد هو أول شهر «توت» الموافق ١٢ سبتمبر من كل عام.

وكان طابع هذا العيد هزليا، وقد وصفه المقريزى الذى عاش فى نهاية العصر المملوكى بقوله «وسنتهم فيه إشعال النيران والتراش بالماء، وكان من مواسم لهو المصريين قديما وحديثا».

لكـن أقدم وصف وصلنا لهذا العيد هو ما كتبه القاضى الفاضل الذى عاش فى نهاية العصر الفاطمى وأوائل العصر الأيوبى، حيث قال:

«يركب فيه أمير موسـوم بأمير النوروز، ومعه جمع كثيرٍ، ويتسـلط على الناس فى طلب رسم رتَّبه، ويرسم على دور الأكابر بالجمل الكبار، ويكتب مناشـير، وينـدب مُرَسِّمين... ويقنع باليسـور مـن الهبات، ويجتمـع المغنـون والفاسـقات (الغـوازى) تحت قصـر اللؤلؤة بحيث يشاهدهم الخليفة، وبأيديهم الملاهى، وترتفع الأصوات، ويُشرَب الخمر والمزر (نوع من المسـكرات) ظاهرا بينهم وفى الطرقات، ويتراش الناس بالماء، وبالخمر، وبالماء ممزوجا بالأقذار، وإن غلط مستور (أى رجل من مسـاتير الناس) وخرج من بيته لقيه من يرشـه ويفسد ثيابه، ويستخف بحرمته، فإما أن يفدى نفسه، وإما أن يُفضَح»[2].

(١) عصام ستاتى: مقدمة فى الفولكلور القبطى، القاهرة، ٢٠١٠، ص ١٦٠.

(٢) المواعظ والاعتبار: ج١ ص ٢٦٧.

وأضاف فى حديثه عن العيد نفسه فى موضع آخر:

«واستجد فيه هذا العام التراجم (أى تبادل القذف) بالبيض، والتصافع بالأنطاع (النطع: قطعة من الجلد)، وانقطع الناس عن التصرف، ومن ظُفر به فى الطريق رُش بمياه نجسة وخُرق به»[1].

والحقيقة أن المصريين كانوا ميالين منذ القدم إلى الهزل فى أعيادهم، ولعل هذا هو الوجه الآخر للعمل الجاد الذى يقومون به، وقد ذكر هيرودوت عن احتفال المصريين بأحد الأعياد فقال:

«إذا بلغوا أثناء إبحارهم مدينة من المدن جنحوا بزورقهم إلى الشاطئ وقاموا بما يأتى: بينما يستمر بعض النسوة فى القيام بما وصفت (من الطبل والرقص والغناء) تعلو أصوات بعضهن هاتفات ساخرات بنساء هذه المدينة. وبعضهن يرقصن، كما تقف بعضهن رافعات ثيابهن. و«الناس يفعلون مثل ذلك عند كل مدينة على شاطىء النهر[2]»».

إنه طابع السخرية الخارج عن حدود المألوف بحثا عن السعادة. والمهم هنا أن المصريين حافظوا على عوائدهم الفرعونية برغم إيمانهم بالأديان المختلفة، وهذه مسألة صعبة الفهم على من لا يعرف طبيعة المصريين المقبلة على الحياة، الباحثة عن السعادة. وقد أوقف الحكام معظم هذه الاحتفالات، ولم يبق منها حاليا سوى شم النسيم، ووفاء النيل.

---

(١) المواعظ والاعتبار: ج١ ص ٢٦٩.

(٢) هردوت يتحدث عن مصر: ص ١٦١.

ثانيا: الأعياد الدينية

سجل المقريزى فى خططه، والقلقشندىفى صبح الأعشى، الأعياد المسيحية التى يحتفل بها المسيحيون فى مصر. تسجيلا وافيا، وقالوا إن الأعياد أربعة عشر عيدا، سبعة منهم كبار، والأخر أعياد صغار. وهذه هى الأعياد التى سجلوها، لم تزل باقية إلى اليوم.

● الأعياد الكبرى

١ - عيد البشارة

ومناسبته بشارة جبريل (أو غبريال) لمريم بميلاد المسيح (عليهما السلام) وموعده التاسع والعشرون من شهر برمهات الموافق السابع من شهر أبريل من كل عام.

٢ - عيد الزيتونة

أو عيد الشعانين، ومعناه «التسبيح» أو عيد السعف، وعادتهم أن يخرجوا فيه بسعف النخيل من الكنيسة، ومناسبته أنه يوم ركوب السيد المسيح لليعفور (وهو الحمار) فى القدس، ودخوله صهيون وهو راكب والناس يسبِّحون بين يديه. وموعده الأحد السادس لصومهم.

٣ - عيد الفصح

وهو العيد الكبير عندهم، ومناسبته أن المسيح عليه السلام قام فيه بعد الصلب بثلاثة أيام، حيث ذهب بطرس ويوحنا تلميذا المسيح إلى القبر فوجدا الثياب التى كانت عليه دون أن يجدا جسده، وعلى القبر

ملاك الله بثياب بيض فأخبرهما بقيام المسيح. وفى عشية هذا الأحد دخل المسيح عليهم، وأكل معهم، وكلمهم، وأوصاهم، وأمرهم بأمور لا تباعها بعده. وموعد هذا العيد بعد عيد الصلبوت بثلاثة أيام.

٤ – خميس الأربعين

ويقال له أيضا عيد الصعود. ويقولون إن السيد المسيح بعد أربعين يوما من قيامته خرج إلى بيت عينا والتلاميذ معه، فرفع يديه، وبارك عليهم، وصعد إلى السماء. عند اكتماله ثلاثا وثلاثين سنة وثلاثة أشهر. فرجع التلاميذ إلى أورشليم، وقد وعدهم باشتهار أمرهم، وموعد هذا العيد هو اليوم الثانى والأربعون من الفطر.

٥ – عيد الخميس

ويسمى أيضا العنصرة، ومناسبته عندهم: تجلى السيد المسيح بعد خمسين يوما من قيامته لتلاميذه فى علية صهيون، فى شبه ألسنة من نار، فامتلأوا من روح القدس، وتكلموا بجميع الألسن. وظهرت على أيديهم آيات كثيرة، فعاداهم اليهود، وحبسوهم. فنجاهم الله، وخرجوا من السجن. فساروا فى الأرض متفرقين يدعون الناس إلى دين المسيح. وموعد هذا العيد السادس والعشرون من بشنس الموافق ٣ يونيو من كل عام.

٦ – عيد الميلاد

وهو اليوم الذى ولد فيه المسيح، ويوافق بالتقويم المصرى اليوم التاسع والعشرين من شهر كيهك الموافق ٧ يناير من كل عام. ولأنه ولد يوم الإثنين، فإنهم يوقدون المصابيح بالكنائس ويزينونها، وكان من عادة المسيحيين أن يفرقوا فيه الحلوى والسمك والجلاب والزلابية على

أصحاب المناصب من أرباب السيوف والأقلام، وقد وصف لنا المقريزى طريقة الاحتفال به فى العصر المملوكى فقال:

«أدركنا الميلاد بالقاهرة ومصر وسائر إقليم مصر موسما جليلا، يباع فيه من الشموع المزهرة بالأصباغ المليحة، والتماثيل البديعة بأموال لا تنحصر، فلا يبقى أحد من الناس أعلاهم وأدناهم حتى يشترى من ذلك لأولاده وأهله. وكانوا يسمونها القوانيس، واحدها فانوس. ويعلقون منها فى الأسواق بالحوانيت شيئا يخرج عن الحد فى الكثرة والملاحة[1]».

٧ - الغطاس

ومناسبته أن يوحنا المعمدان (النبى يحيى بن زكريا عليه السلام) عمد فيه المسيح عليه السلام فى نهر الأردن، وحين خرج عليه السلام من الماء اتصل به روح القدس، فاتبع النصارى هذه السنّة منذ هذا الحين، وصاروا يغمسون أولادهم فى الماء للتعميد، وينزلون فيه جميعا، ووسع المصريون الاحتفال بالعيد فصاروا ينزلون إلى النيل فى هذا اليوم للاستحمام، وقد ذكرنا من قبل ما ذكره المسعودى فى كتابه مروج الذهب عن احتفال المسلمين والمسيحيين بهذا اليوم فى القرن الرابع الهجرى، أى منذ أكثر من ألف عام. وذكر المقريزى فى خططه أن الخليفة الفاطمى وأهله كانوا يشاركون فى الاحتفال بهذا العيد، والمعروف أن الاحتفال بالغطاس يوافق الحادى عشر من طوبة بالتقويم المصرى. الذى يوافق التاسع عشر من يناير.

(١) المواعظ والاعتبار: ج١ ص ٢٦٥.

● الأعياد الصغرى

والأعياد الصغرى سبعة، هى:

١ - الختان

ومناسبته الاحتفال باليوم الذى ختن فيه المسيح عليه السلام، وموعده اليوم السادس من بؤونة، الموافق لليوم الثالث عشر من يونيو من كل عام.

٢ - الأربعون

ومناسبته: دخول المسيح الهيكل، ومباركة الكاهن سمعان له. وموعده الثامن عشر من شهر أمشير، الموافق للخامس والعشرين من مارس من كل عام.

٣ - خميس العهد

ومناسبته ما فعله المسيح مع تلاميذه حين غسل أقدامهم ليعلمهم التواضع، ثم أخذ عليهم العهد ألا يتفرقوا، وسنة المسيحيين فيه أن يملأوا إناء من ماء، ويزمزمون عليه، ثم يغسل القس به أرجل سائر النصارى. وموعد هذا العيد قبل الفصح بثلاثة أيام، ومن عادة المسيحيين أن يطبخوا فى هذا اليوم العدس المصفى، ولذلك يسمى خميس العدس.

وكان المسيحيون فى الدولة الفاطمية يضربون فى هذا اليوم خراريب الذهب، وعددها خمسمائة ويفرقونها فى أهل الدولة. وقد وصف المقريزى الاحتفال بهذا اليوم فى العصر المملوكى فقال:

«وأدركنا خميس العدس هذا في القاهرة، ومصر وأعمالها، من جملة المواسم العظيمة، فيباع في أسواق القاهرة من البيض المصبوغ عدة ألوان ما يتجاوز حد الكثرة، فيقامر به العبيد والصبيان والغوغاء، وينتدب لذلك من جهة المحتسب من يردعهم في بعض الأحيان، ويهادى النصارى بعضهم بعضا، ويهدون إلى المسلمين أنواع السمك المنوع مع العدس المصفى والبيض، وقد بطل هذا لما حل بالناس، وبقيت منه بقية[1]».

٤ – سبت النور

ومناسبته عندهم: ظهور النور على قبر المسيح، وموعده اليوم الثالث من خميس العهد

٥ – حد الحدود

وفيه يجددون الآلات والأثاث واللباس، ويأخذون في المعاملات والأمور الدنيوية والمعاش، وموعده بعد الفصح بثمانية أيام.، وهو أول أحد بعد الفطر، لأن أيام الآحاد قبله تكون مشغولة بالصوم.

٦ – عيد التجلي

ومناسبته عندهم: أن المسيح عليه السلام تجلى لتلاميذه بعد رفعه، فتمنوا عليه أن يحضر لهم إيلياء وموسى عليهما السلام، فأحضرهما إليهم بمصلى بيت المقدس، ثم صعدوا عليهم السلام إلى السماء. وموعده اليوم الثالث عشر من شهر مسرى الموافق للتاسع عشر من أغسطس من كل عام.

---

(١) المواعظ والاعتبار: ج١ ص ٢٦٦.

٧ - عيد الصليب

ومناسبته عندهم: اكتشاف الصليب الذى صلب عليه المسيح على يد هيلانة أم الإمبراطور قسطنطين. وموعده اليوم السابع عشر من شهر توت الموافق الثامن والعشرون من سبتمبر من كل عام[1].

وبعد..

هذه ليست كل أعياد المسيحيين فى مصر، فقد ذكر القلقشندى عشرات الأعياد الأخرى، التى يحتفل بها المسلمون، وأكثرها احتفالات بموالد القديسين وآباء الكنيسة، وهى أيضا تكاد تكون صورة أخرى من موالد المشايخ المسلمين، كما يشارك فيها مسلمون لا حصر لهم، وقد ذكرت هذا فى المقدمة.

❑❑❑

(١) المواعظ والاعتبار: ج١ ص ٢٦٤ - ٢٦٦. وصبح الأعشى ج ٢ ص ٤١٥ - ٤١٩.